المحاضرة الثامنة : كليفورد غيرتز:

1/ التعريف

ولد سنة 1926في سان فرانسيسكو . ناقش رسالته في الانتربولوجيا في هارفرد سنة 1936 و قام بأبحاث على الميدان، في جاوة (1952-1953) و في بالي (1957-1958) و في المغرب . قام منذ سنة 1960 بتدريس الأنتربولوجيا في جامعة كاليفورنيا (باركلي) ثم في جامعة شيكاغو . أثر غيرتز كثيرا في الباحثين الشباب و ساهم أيضا في تجديد أنتربولوجيا الأوليات الرمزية رغم احتلاله مكانة متميزة في الأنتربولوجيا بأمريكا الشمالية، بسبب منهجية الترميزية و أسلوبه الغني بالمراجع الأدبية و الفلسفية، تابع غيرتز دراساته في نطاق معهد الدراسات المتقدمة في برنستون . توفي سنة 2006 قدم غيرتز رؤية جديدة للثقافة التي يعتبرها مستقلة عن البيئة الاجتماعية أو عن علم النفس إذ تقوم كل ثقافة في مواضع تاريخية مستقرة بتنمية تناغم داخلي يشمل في آن واحد جانبا معرفيا (رؤية العالم ) و جانبا شعوريا و أسلوبيا (منظومة القيم ). تميز هذه الرؤية للثقافة ككيان أسلوبي ابتعد فيها غيرتز عن التيارات البنيوية و الوظيفية و المعاصرة و تربط تلك التيارات تبعا لموضعها بتراث أمريكا الشمالية الذي يعتمد الأنتربولوجيا الثقافية . يعرف غيرتز الثقافة بأنها ر نظام رمزي فعال نتقاسمه و نعيشه بصورة مشتركة عوضا عن فهمها وإدراكها من خلال نظرة قومية أو عبر شخصية مركزية تتمثل فيها الترسبات الثقافية أن الرؤية الكلاسيكية الجديدة التي ترى بان الفعل الرمزي بها فيه الفكر، ذو طبيعة اجتماعية معروفة من الجميع تفرض حسب غيرتز محاولة قراءة من فوق أكتاف الشعوب المحلية ، بدلا من الدخول في رؤوسهم . أي انه يجب تعلم تفسير طريقة استخدامهم لنظام هو عام بالنسبة لهم، كما هو عام بالنسبة للاثنوغرافي أيضا. يمنح تعلم مثل هذا النظام بتحليل الممارسات الرمزية كنصوص معاشة مما يعني أن النماذج المناسبة للتحليل الثقافي هي من النوع التأويلي فالاثنوغرافيا لا يمكنها أن تكون إلا توصيفا معمقا (وصفا مكثفا ) تأويلات غيرتز التأويلية: سوق صفرو:ما يهمنا في هذا المبحث الخاص بهذا الرّائد الأنثروبولوجي هو تلك المقاربة التي قدمها في تحليله للمجتمع المغربي و التي اختزلها فيما لاحظه عن مجرد سوق، هو سوق صفرو. ارتأيت تقديم طريقة معالجته لهذا الموضوع. و ذلك بالرّجوع إلى كتابه في هذا الموضوع "تأويل الثّقافات" الذي اعتمد فيه على الوصف المكثف، الذي يعتمد على الجمع بين المعطيات الميدانية و العرض النظري. النّص الأول: النّص الأول من هذا الكتاب "تأويل الثّقافات" الذي صدر سنة 1973، و صدرت ترجمته باللغة الفرنسية سنة 1988.، و صدرت طبعته الأولى باللغة العربية سنة2009. ينطلق غيرتز من حدث وقع سنة1912 في منطقة مرموشة بالأطلس المتوسط، و الذي كان بعيد عن السيطرة الفرنسية. لدى لجأ إلى نوع من الحماية الفردية تعرف بعقد "المزراك" الذي يتولاه ضامن، صاحب نفوذ داخل القبيلة التي يمر بها المسافر. تعرض رجل يهودي إلى الاعتداء من قبل رجل تنكر في زي امرأة. و حاول اغتياله لكنه نجا من الاغتيال ، لكن صودرت سلعته المتمثلة في 500 رأس من الغنم، اشتكى اليهودي للسلطات الفرنسية التي لم تكن لها سلطة على المنطقة، و طالب "كوهن" الذهاب إلى شيخ القبيلة لاسترجاع أملاكه و لكن فرنسا لم تكن تعترف بنظام المزراك، و استطاع أن يسترجع أملاكه، اتهمته السلطات الفرنسية بالتّجسس لصالح أنوراد القبيلة لذلك تم سجنه، ثم أطلق سراحه. يحلل غيرتز هذا النّظام و يوسع دائرة التّنظيم ليطرح عددا من قضايا التأويل الثّقافي. كيف شد هذا الحدث اهتمام غيتز؟ تقوم القصة على أدوار: التّاجر اليهودي- شيخ القبيلة- الضابط العسكري. إذن هناك ثلاث شخصيات تعبر عن الانتقال من التّأمين بواسطة أدوات الدّولة التّراتبية في إطار نسق الحماية. \_يرتبط الحدث بظاهرة الانتقام و اختلاف اللغات. \_الحدث عبارة عن مشهد يبرز اشتغال جملة من المفاهيم المحلية حول مواضيع: العنف، العرض، العدالة، القبيلة،الملكية، الانتماء، و الزعامة. و يضعنا الحدث أمام رموز تحمل دلالات معينة عند الفاعلين. \_هي رموز توجه الفعل الاجتماعي، و هذه الدلالات هي التي يركز عليها غيرتز ليبني قراءات للمجتمع باعتباره منظومة ثقافية بعيدا عن التّفسير الكلاسيكي، و وهم البحث عن قوانين اجتماعية. أولا: مستوى تحديد الهويات الاجتماعية: من أنا؟ و من أنت؟ تتحدد معايير الأنساب"البنية" في مصطلح غيرتز عند روّاد السوق بين العائلة و القبيلة، الأصل الجغرافي، و المهنة، الزّاوية، و يتميز الفرد في بعض الأحيان بلقب يدل على خاصية جسمانية معينة. و نظام الانتساب ليس مجرد خطاطة تصنيفية تؤطر الطّريقة التي ينظر بها النّاس إلى ذواتهم و إلى بعضهم العض، بل هو في نفس الوقت إطار ينظم النّاس فيه مبادلاتهم المختلفة، و من بينها المبادلات الاقتصادية في حالة السّوق. و يتخذ الانتساب شكل الفسيفساء و هي في الواقع دليل يساعد على بناء الواقع الاجتماعي. ثانيا: مستوى البيئة كمجال للاتصال و التّبادل: اختيار منطقة صفرو لعدة اعتبارات منها: - تقع المدينة بين السهل و الجبل. - بين قبائل ناطقة بالعربية و بالأمازيغية. - تعرف تفاعلا هاما بين اليهود و المسلمين. و من الناحية التّاريخية تقع صفرو في أحد أهم محاور التّجارة القافلية و الإستراتيجية "طريق السّلطان" الواقعة بين تافلالت و فاس. ثالثا: مستوى المعلومة: يتميز السّوق بندرة المعلومة و ارتفاع مستوى جهلها، سواء تعلق الأمر بالأثمان أو جودة المنتجات، أو كلفة الإنتاج، و هذا العامل الأساسي ساهم بقدر كبير في تحديد طرق اشتغال و تنظيم السوق، و يوجه سلوك مختلف الفاعلين داخل هذه المؤسسة الاقتصادية. و هناك من يسعى إلى الحد منها، و تقوم كل هذه الاستراتيجيات على مهارات و قدر كبير من الحس و القدرة على رصد المؤشرات. و نتيجة لندرة المعلومة فإن عملية التّبادل تتم من خلال التّفاعل المتكرر من الأفراد وجها لوجه. و هو ما يعطي أهمية قصوى للعلاقات الشخصية و الزّبونية. الخلاصة: تلتقي النسبة و البيئة و الندرة في اتجاه مشترك و تؤدي إلى نفس النتيجة و هي ترسيخ ثقافة "المساومة". و هكذا يعبر السوق عن خصوصية النّظام الاجتماعي في مستوى أعم، فالنّظام الاجتماعي لا تحده بنية قارة، بل يقوم على عملية تفاوضية، يحددها سياق معين و مجال معين. و هي تتصل بمصالح الفاعلين و أهدافهم و قيمهم و معتقداتهم. النّص الثّاني: صراع الديكة في بالي، 1958: يعبر صراع الديكة على الثّقافة المحلية في مستوى المخيال و البنية الاجتماعية. فالديك رمز الذكورة، و تتخذ الكلمة عدة معاني استعارية مثل البطل المحارب، دليل على المحاكمات و الصّراعات السّياسية و النّزاعات بين الورثة و المشاجرات في الشّارع. و يحيل الدّيك أيضا إلى القوى الخفية و البعد الحيواني المدّمر، و بالتّالي فإن صراع الدّيكة أشبه بالطّقس و الأضحية الذي يهدف إلى تهدئة قوى الشّر. فالثقافة حسب غيرتز: ليست فوقية تعكس بنية تحتية تتمثل في الاقتصاد و المجتمع و ليست البنيات الرّمزيةمجرد تمثل للممارسات الاجتماعية بل إن السلوك الاجتماعي هو في حد ذاته فعل رمزي. مسألة بناء الموضوع: يقول غيرتز: عندما يريد الباحث أن يصوغ موضوع دراسته فهو يختار زاوية معينة قد تكون قصة مرموشة أو مؤسسة سوق صفرو أو طقس (صراع الديكة)... و يشترط الوصف المكثف أن ننتبه إلى عنصر يكثف الواقع و يتجاوز التّصنيفات المتداولة بين مستويات المجتمع أو الثّقافة. و نعني بذلك التّمييز، بمنطق الخانات، بين الجوانب الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و المجالية و الثّقافية على سبيل المثال لا الحصر. و هنا يلتقي الوصف المكثف مع مجموعة من المفاهيم الأخرى منها: مفهوم الظاهرة الاجتماعية الكلية: الذي اقترحه عالم الاجتماع الفرنسي [مارسيل موس] من خلال دراسته الشهيرة للهبة و الهبة المضادة، وجد غيرتز بأن هذا النّموذج ينطبق على قضية الشّاي و زطاطة بالمغرب. مفهوم النّموذج الذهبي Idéal Type: الذي اقترحه [ماكس فيبر] و معناه مفهوم يساعد على فهم الواقع دون أن يطابقه تمام المطابقة. مثل: ابتكار أحداث و شخصيات تعبر عن عمق التجربة الإنسانية دون أن يكون لها علاقة بالواقع. و من هنا تتضح الأهمية التي يوليها غيرتز لدور الخيال عند الأنثوبولوجيين و للطبيعة الأدبية للكتابة الأنثروبولوجية. النّظرية و المقاربة: تعتمد دراسته للثقافة على التّداخل بين الميدان و النّص، بحيث يتعامل الباحث مع المعطيات الميدانية كنصوص، وبل ويتعامل مع المجتمع كنص. و في مستوى آخر تتيح المقاربة الغيرنزية عدة إمكانيات منها: \_الإنتقال من نص إلى آخر، نلاحظ مثلا قصة مرموشة تحيل إلى الزّطاطة، و الزطاطة على جزء من السّوق. \_ الإنتقال من الموضوع المجهري إلى تناول الأشياء الثّقافية الواسعة (من حالة سوق صفور إلى ثقافات مجتمعات الشرق الأوسط). \_بناء الموضوع بواسطة هاجس المقارنة و هكذا استطاع غيرتز أن يلفت الانتباه إلى الحركة كظاهرة بنيوية تتصل برمزية السّلطة في الدّولة التّقليدية في المغرب بناء على ثلاثة نماذج ملكية، و هي: التّنقل عند إليزابيت الإنجليزية. و هايام ورك بجزيرة جاوة الأندنوسية و الحسن الثّاني بالمغرب. النقد:

فأعمال غيرتز توفر إمكانية جديدة لبناء الموضوع التّاريخي غير أن المقاربة المقترحة تفترض صعوبة استنفاد تأويل ثقافة معينة. \_تستبعد النّظرية التي قد يسقطها البعض على مجتمع أو ثقافة معينة من أجل تأطيرها بشكل يدعي الشّمولية. لذلك فأعمال غيرتز لا تقترح بناء نظري مغلق بقدر ما تقترح أسلوب عمل يتمتع بقوة استكشافية.